د. موس لبنى آمال
جامعة تلمسان

تقديم

جاء في مقدمة الصحاح أن اللّغة ظاهرة اجتماعية وثمرة من ثمرات المجتمع التي تتخذها وسيلة للإفصاح والإبانة والفهم والتعبير وكل كلمة من كلمات اللّغة يقابلها فكر من الأفكار [1]. فاللّغة هي أساس الحياة في المجتمع ووسيلة للتفاهم والتخاطب وتبادل لتلك الأفكار، بل هي السبب الرئيسي لأي حضارة سواء مجال التأليف أو ميادين العلم والمعرفة، لذا أعجب العرب بلغتهم أيما إعجاب، فكانت مصدر فخر وأكرمها الله أيما تكريم، لا يضاهيها شعر الجاهلية ولا فصاحة البلغاء.

وبهذا التكريم تطور البحث اللّغوي فزخر بإنجازات وتشييدات فظهرت مدارس كالبصرة والكوفة، وانبرى عدد من علماء اللّغة ليسهموا في تطور وسيرورة عجلة الحضارة الإسلامية العربية، فتعددت هذه الانجازات وأهمها ظهور علم عرف بعلم المعاجم.

و قبل البحث في العلوم وجب علينا البحث في مفاتيحها و مصطلحاتها، فما المعجم؟ ما هي تعاريفه المختلفة؟ و متى نحا العرب إلى المفاهيم الاصطلاحية الحديثة ؟

المعجم كتاب يضم أكبر عدد من مفردات اللّغة مقرونة بشرحها وتفسير معانيها على أن تكون المواد مرتبة ترتيبا خاصا إما على حروف الهجاء أو الموضوع ،والمعجم الكامل هو

[1] - ينظر: حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الصحاح، ص38.

الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها وشواهد تبين مواضع استعمالها .[2]

فكانت المعاجم أداة من أدوات المواجهة حتى لا تقتلع من جذور لغتنا التي مثلت الدّين والعقل والعلم والثقافة بجميع ميادينها.

إلا أننا لا ندري متى أطلقت كلمة المعجم؟ إلا أن رجال الحديث عرفوا هذا في القرن الثالث وأول كتاب أطلق عليه اسم المعجم هو "معجم الصحابة " لأبي يعلى احمد بن علي بن المثنى بن يحي بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي الحافظ وقد ولد سنة 210 هـ .

غير أن السؤال الذي لا يزال يراودنا هو عن اصل التسمية.

وقد جاء أثر منسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن استعمال كلمة المعجم جاءت في مقدمة كشف الظنون :"في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال:"يا رسول الله أي كتاب أنزله الله على آدم عليه السلام، قال: كتاب المعجم قلت : أي كتاب المعجم؟ قال: ا ب ت ث ج... قلت يا رسول الله، كم حرفا، قال تسعة وعشرون حرفا" [3].

لم تكن في تأليف المعجمات اللغوية الريادة للعرب بل سبقهم إلى ذلك الصينيون والآشوريون واليونانيون، فالصينيون عرفوا المعاجم قبل ألف سنة تقريبا والآشوريون صنفوا المعاجم خوفا على لغتهم وهي عبارة عن قوائم من الطين المشوي أودعها مكتبتهم في نينوى خلال القرن السابع قبل الميلاد، أما اليونانيون فقد وضعوا كتبا تحوي تفسيرات لبعض مفردات كتب أفلاطون، أو بعض خطبهم مرتبة ترتيبا موضوعيا إلا أن العرب

---

[2] - ينظر: : حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الصحاح، ص38.

[3] ينظر: المصدر السابق، ج1، ص39.

سبقوا الأوروبيين بعامة في هذا المجال، حيث يعود تأليف أول معجم عربي إلى القرن الثامن الميلادي [4].

ولكن ما المعجم العربي؟

إنّ بداية الأمر تجعلنا نقف عند مادة هذه الكلمة: (ع. ج. م). لنجد معنى هذه الكلمة لغة واصطلاحا:

المعجم: كتاب يضم أكبر عدد من المفردات اللغة مقرونة شرحها وتفسير معانيها على أن تكون المواد مرتبة ترتيبا، خاصا إما على حروف الهجاء أو الموضوع. والمعجم الكامل هو الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها [5] .

أ- لغة:

يقول " ابن جني" (ع. ج. م) إنّما وقعت في كلام العرب للإبهام والخفاء وضد البيان والإفصاح [6] .

أما الوسيط: فـ :"عجم فلان عجمة، كان في لسانه لكنة". ويقال كذلك عجم الكلام إذا لم يكن فصيحا، فهو أعجم وهي عجماء، فالإعجام غير الإعراب كما جاء أيضا عجم الحرف والكتاب عجماً، أزال إبهامه بالنقط والشكل وعجم الشيء عجما وعجوماً. عضه ليعلم صلابته من رخاوته"[7] .

---

[4] - ينظر: عبد اللطيف الصوفي، اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، دار طلاس. ط 1 ، 1986، ص 35.

[5] - ينظر: حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار الصحاح، ج 1، ص 39.

[6] - ينظر: العطار بوشتي المعاجم العربية، رؤية تاريخية وتقويمية، منشورات جامعة شعيب الدّكالي، الجديدة، المغرب 1990.

[7] - المعجم الوسيط مادة عجم.

محاضرات في الموسوعات اللغوية

وقيد الفيومي في المصباح المنير:

"وَ عَجُمَ فلان عُجْمَةً: كان في لسانه لكنة، ويقال كذلك: عَجُمَ الكلامُ إذا لم يكن فصيحاً، فهو أَعْجَمُ، وَهِيَ عَجْمَاء جمع عُجْمٌ "[8] .

وتأتي مادة عجم في اللغة للدلالة على الإبهام والإخفاء وعدم الإفصاح، فمنها الأعجم الذي لا يفصح.

فالمعجم في اللّغة: " العُجْم والعُجَم خلاف العُرْب والعَرَب، والأعْجَم الذي لا يفصح وليبين كلامه والعَجْم الإبْهام والخفاء وعدم الإيضاح.وعجمت الكتاب، أبْهمته ومن ذلك: قولهم رجل أعجم، وامرأة عجماء إذا كانا لا يفصحان ولايبينان كلامهما، وسميت البهيمة عجمة لأنّها لا تتكلم، وبلاد العَجُم سماها العرب بذلك، لأن لغتها غير واضحة لهم ولا يفهمونها [9] .

وقد أطلقت لفظة مُعْجم على الكتاب الذي يراعي في بنائه ترتيب الحروف وهذا الكتاب يزيل إبهام تلك المادة المركبة على حروف المعجم.

ب- اصطلاحا:

أجمع الدّارسون أن بداية المعجم العربي كانت بعد نزول القرآن الكريم مصداقا لقوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)[10].

---

[8] - ينظر: عبد القادر عبد الجليل، المدارس المعجمية، ص30.

[9] - ابن جني: أبوا الفتح عثمان، سرّ صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السّقا وآخرون، دار القلم،دمشق، ط1، 1985م، ج1، ص 40.

[10] - سورة النحل، الآية 44.

أما ابن الجني فناقش التعليل النحوي ومعنى حروف المعجم مناقشة دقيقة ما معنى قولنا حروف المعجم؟ هل المعجم صفة لحروف هذه أو غير وصف لها؟ فالإجابة كانت على النحو التالي: من خلال قولنا حروف المعجم لا يجوز أن تكون صفة لسببين رئيسين هما: أن هذه الحروف لو كانت غير مضافة إلى المعجم لكانت نكرة والمعجم مُعَرَفة، والثاني أن الحروف مضافة إلى المعجم ومحال أيضا إضافة الموصوف إلى صفته والعلة في الامتناع إن الصفة هي الموصوف على قول النحويين في المعنى [11].

وسميت المعاجم باسم آخر لا شك و لا غموض فيه هو القواميس (مفردها قاموس) ثم اشتهر هذا الاستعمال حتّى أصبح مرادفا لكلمة معجم لغوي وأطلق على جميع المعاجم اللّغوية الأخرى المتقدمة والمتأخرة.

1. الخلفيات التاريخية للمعاجم العربية:

ليس المعجم العربي كتابا جُمعت فيه مفردات و تدلّ على معناها وإنما هو حوصلة جهود علمية في الميدان اللغوي، وهو الإرث الحضاري عبر أزمنته المتوالية والأحقاب المديدة، والعصور العديدة. فبقدر الاهتمام تُؤخذ النتائج و يكون رقي المنهج، ورفعة التناول، ودقة التطبيق.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: ما هي الدوافع التي أدت باللّغويين إلى الاهتمام بالمعاجم اللغوية على هذا النحو وخاصة في القرن الرابع الهجري؟ وما هي الخلفيات التي أدت إلى نشأتها؟

[11] - ينظر: حسين نصار، المعجم العربي، نشأته وتطوره، مكتبة مصر 1988، ص 9-10-11

قامت المعاجم العربية بدور حفظ الثروة اللغوية العربية التي بها دونت ملامح الحضارة العربية الإسلامية، واللافت في الأمر أن المعاجم لم تقتصر أهميتها على علم دون غيره، أو علماء دون سواهم، بل شملت جميع العلوم و الميادين.

فليس من شك أن العرب في العصر الجاهلي عرفوا الكتابة والتدوين لاسيما في الحواضر كمثال الجزيرة العربية وذلك لتوفر الأحجار والصخور كوسائل سهلت لهم عملية التدوين فضلا عن عظام أكتاف الإبل إلاّ أنه اقتصر على الحياة الاجتماعية والعهود والأحلاف والمواثيق، أما الأعمال الأدبية فلم تكن تدون إلا نادرا، وفيها قلة قليلة تقرأ وتكتب. فقد تفشت فيها الأمية لذلك كان اعتمادها الأول على الذاكر والرواية الشفوية ويقال انه عند مجيء الإسلام كان في مكة سبعة عشر كاتبا وفي المدينة أحد عشر كاتبا[12].

كانت الحاجة ماسة لظهور مثل هذا العلم أي " فن المعجمة" بالتوازي مع انتشار الإسلام في جميع بقاع الأرض، وكان الانفتاح على الأمم الأخرى، فكان لابدّ لمثل هذه الأمم أن يتطور لديهم الحس اللغوي ويبدؤون بعهد جديد بما يعرف بالبحث اللغوي.

ولا يمكن الحكم على المعجم العربي ورواسيه الأولى ونقول إنه لم يأت بصورة مكتملة، لأن هذا العمل يتطلب جهودا متضافرة لتراث أمة قاطبة من المبدعين والكتاب والأدباء والشعراء محققين في تلك الثروة المادية الموجود لما بين أيديهم وفي هذا السياق عبّر صاحب " المعجم العربي بين الماضي والحاضر "بقوله: المعجم العربي: مجموع الثروة العظيمة

[12] - ينظر: عبد اللطيف الصوفي، اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية ، دار طلاس، ص15

محاضرات في الموسوعات اللغوية

التي خلفها علماء العربية، على مدى العصور فحفظوا لنا بها لغة العرب، لغة القرآن الكريم، اللّغة التي نفتخر بها ونعتز " [13] .

ولعل الدافع إلى ذلك الخوف من ضياع اللسان بدخول الأجانب، و أجمع الدارسون أن بداية المعجم العربي كانت بعد نزول القرآن الكريم، وكان القرآن هو المحور والدافع الرئيسي لظهور مثل هذا العلم " صناعة المعاجم" .

كان للقرآن الكريم الأثر البالغ، في تدوين اللغة العربية، وتأصيل مفرداتها، وقد أصبح بعد أن تلقته الأمة بالقبول، ورأت فيه إعجازا يتسامى عن صناعة البشر بأساليبه الرّائعة، وحكمته البديعة ونسيجه المتفرد، وأسلوبه المتماسك.

نشأت الدّراسات اللغوية في ظلال القرآن الكريم، الذي كان العلماء يتوّخون نصه بالدرس والتعمق، في سياقاته وألفاظه ودلالته ويعتمدونه للاستشهاد وعلى فهم اللغة وصحّتها وفصاحتها [14] . فكانت بداية هذا العلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ليتبعوه في ذلك الصحابة رضوان الله عليهم. " فكان النبي صلى الله عليه وسلّم يفسر من ألفاظ أو ما غمض من معان في القرآن حتّى أن الإمام عليا قال للنبي صلى الله عليه وسلم " يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم العرب بما لا نفهم أكثره " [15] . فحركة التدوين للغة العربية ابتدأت واستمرت إلا لأجل هدف واحد ألا وهو العربية والقرآن الكريم.

---

[13] - ينظر: المبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدّرس اللساني الحديث. ط 1 2011، دار الوعي، الجزائر، ص63.

[14] - ينظر: المرجع السابق، ص 62.

[15] - ينظر عبد اللطيف الصوفي، اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، ص 15.

فللقرآن الكريم الفضل الكبير في إرساء ونشأة المعجم العربي ومعه نشأت الدراسات اللغوية وتطورت ليصل علماؤها إلى قمة العطاء وبلغوا أوج المجد لأنه مع هذا أصبحت اللغة جزءا من الدّين رغم أن الجاهليين اهتموا بها ولكن لم يكن له نظر كما كان في عهد الإسلام فحرصوا وشددوا وبالغوا في ذلك الحرص خوفا من أن تشوبه الشوائب.

ولقد انبرى لهذا العمل العلمي الرّائد، الذي خدم الأمة، وحفظ معالم الهوية والتراث، وأسس منظومة للتقعيد والتصنيف، والتفاعل مع اللسان، بما لا يدع مجالا لعاصف الأهواء وطارئ الأرزاء فتكون اللّغة بذلك بمنأى عن كل ما يفسد رونقها، أو يذهب بهائها الإعجازي المرتبط بالقرآن الكريم فالقرآن هو المحفوظ على مدى الأزمان[16]،المحور الأساسي والرئيسي لجميع العلوم والدراسات اللغوية من نحو وصرف وبلاغة.

وبما أن الإسلام نقطة أضاءت للبشرية جمعاء طريقها وأنارت السبل فكان لابد أن تكون الحماية لهاته المعجزة المتمثلة في القرآن الذي نزل بلغة العرب.وأكّد " عبد المجيد عابدين" في كتابه: "المدخل إلى دراسة النحو العربي " على " أن الباعث على جمع الشواهد العربية، ورسم قواعدها هو باعث ديني في الأساس مرّده إلى ضبط النص القرآني مما آل إلى الممارسة بين المعارف اللغوية والعلوم الدينية، وهو الأمر الذي جعل أغلب اللّغويين القدامى مقرئين ومفسرين ومحدثين ومتكلمين وأصوليين وفقهاء "[17].

"و كان أيضا نقطة تحويل في حياة العرب سياسيا وإجتماعيا وثقافيا فقد جعل للحياة الجاهلية منقلبا حضاريا على تلك التقاليد الجاهلية الفاسدة والعادات الخاطئة التي كان عليها

---

[16] - ينظر: مبروك زيد الخير، محاظرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدّرس اللساني، ص53.

[17] - ينظر: المرجع نفسه، ص62.

العرب قبل الإسلام، ولأنهم العرب الفصحاء البلغاء. الذين اشتهروا بفن القول وصنعة الكلام، قد أنزل الله عليهم معجزة من جنس كلامهم تمثلت بالقرآن الكريم الذي أعجز العرب وتحدّاهم أن يأتوا بمثله أو بمثل آياته إن استطاعوا[18] . بقوله تعالى:(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينْ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَتْ لِلْكَافِرِينْ)[19].

وهذا ما لوحظ عند دخول العرب للإسلام فجعلوه دستورًالهم وساروا على نهجه واهتدوا بهداه فأصبح الإسلام المكون الرئيسي لحضارة العرب والمسلمين.

ولعل اختلاف الحقول الدلالية عامل آخر من عوامل نموواللّغة و تغيير مدلولاتها،فقد أدخل الإسلام معاني جديدة لكثير من الألفاظ التي عرف العربي فيها معاني كمؤمن ومسلم، صلاة زكاة، ركوع وسجود، فمدلول هذه الكلمات غيره في الإسلام، وكانت الأحداث سببا في استعمال كلمات في معان خاصة لم تكن تستعمل[20]. كما رأى أحمد أمين في كتابه: ضحى الإسلام أن للإسلام والفتح وما تبعها من حضارة سببا في انتشار اللغة وسعتها، ولكن هناك ناحية أخرى لا يصح إغفالها وهو أن الإسلام والفتح والحضارة أنتجت أشياء لها خطرها، من ذلك أن جزيرة العرب أصبحت مرتادا للأعاجم، فحاضرة الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين هي المدينة ومقصد المسلمين كلهم في الحج مكة، وعرب الجزيرة بحكم الفتح قد ملكوا رقيقا سكنوا مع سادتهم، فاختلط العجم بالعرب في البيوت وفي الأسواق وفي المناسك وفي المساجد، فتطرق الخلل في لسان العرب، وكانوا يتكلمون العربي عن

---

[18] - ينظر: حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الصحاح ص

[19] - سورة البقرة، الآية 22 - 23.

[20] - ينظر: أحمد أمين،ضحى الإسلام، دار الأصالة، ط1، 2010، ج2، ص 216.

سليقة فأخذ الفساد يدب في تلك السليقة، فظهر اللحن، خالط عرب مصر القبط، وعرب الشام الشاميين، وعرب العراق الفرس والنبط فدّب اللحن إليهم أيضا" [21].

إذن امتلكت اللغة العربية جوّا من الهالة القدسية فأصبحت لغة مقدسة لا يمكن المساس بها ولا بتشريعها الديني.

وفي هذا السياق رأى الزركشي أن " الهالة القدسية حول اللغة العربية كانت الباعث الأول والدافع الرئيسي للإعتناء باللغة والحفاظ عليها وإبراز جوانب الجمال والتفرق بها، ولعلّ ما يفسر ذلك كثرة الدراسات اللّغوية التي ألّفت ، فوجدنا كثيرا من العلماء ينبرون للتأليف والبحث في اللّغة بما يخدم تفسير تلك المعجزة الرّبانية- القرآن الكريم- والعمل على توضيح الجوانب اللّغوية والدلالية لآياته وألفاظه في مختلف العلوم اللّغوية[22].

وبهذا نستطيع القول إنه لولا القرآن ودراسته، والاعتماد على الشعر كجانب تكاملي لما استطاع الشعر في الاستمرار فبسببه نشأ الاهتمام بغريب الألفاظ في العربية، والبحث عن مكنونات معانيها ليتوجا في الأخير ببناء معجم عربي، وقد أشار ابن خلدون "إلى أن القرآن هو محور الدراسات العربية عامة ولولاه لأصبحت العربية لغة أثرية تراثية، كاللغة اللاتينية القديمة"[23]، كما أن الحاجة الماسة إلى معرفة الغامض والمسائل التي تعلّقت بالقراءة والفهم جعلت أمورا جديدة تظهر في حيز الوجود وأحيانا يستعصي على الصحابة استنباط أحكامها سواء من القرآن الكريم أو الحديث الشريف.

---

[21] - ينظر: أحمد أمين ضحى الإسلام، دار الأصالة، ج2 ، ص 216 -217.

[22] - ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن،دار المعرفة، بيروت1972م، ص 295.

[23] - ينظر: أحمد أمين، ضحى الاسلام، دار الأصالة، ص217.

و إلى هذا يذهب أحمد بن فارس: " الإعراب هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللّفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميّز فاعل من مفعول. و لا مضاف من منعوت، و لا تعجب من استفهام، و لا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد"[24].

يعد اللّحن السبب المباشر الذي ساهم في ظهور الدّراسات اللّغوية، وارتباطها بالدراسات الدينية. شكل اللّحن في نظر كثير من العلماء السبب الرئيسي والباعث الأول لدراسات اللغوية العربية ذلك لما استفحل أثره، وتعاظم انتشاره، أصبح يشكل خطرا حقيقيا يهدّد سلامة اللّغة التي وصلت عند ظهور الإسلام إلى قمة نضجها وتكاملها مع إرث لغوي وأدبي كان خلاصة مراحل متعاقبة من التطور والإبداع، و الهدف الأسمى لعلمائنا هو الحفاظ على سلامة اللغة الفصحى وتنقيتها من شوائب الخطأ أو الأعراف، خاصة بعد الفتح الإسلامي واختلاط العرب بالأعاجم، وكان سبب ذلك الحفاظ على سلامة النص القرآني من التحريف، وضبط ألفاظه وإتقان قراءته وفهم معانيه، ومن هنا وُجهت العناية إلى ظاهرة اللحن.

محاضرات في الموسوعات اللغوية

[24] - ينظر: د. مبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدّرس اللساني الحديث ط 1، 2011، ص67.